كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع
في حفل استقبال
الدكتور محمد محفّل

أيها الحفل الكريم

تتميز كل أمة عن الأمم الأخرى بما تعتبره يُمثّل حقيقتَها.

ذلك أن التاريخ المتداول للأمم هو ما يُثبته المؤرخون سواء أكانوا أبناء تلك الأمة، أم كانوا رجالاً اختصّوا بتسجيل الأحداث وترتيبِ ما يجدونه من معطيات، ليَخرُجوا إلينا بنظرةٍ شاملة يعتقدون أنها تمثل توضيحًا لما جرى من أحداثٍ في تلك المرحلة الزمنية التي يؤرّخون لها.

إلا أن الأفراد، وكذلك الشعوب، في تصرفاتهم اليومية يتجاوزون تلك الأحداث وما يربطها من تَراتبيّة زمنية ليحتفظوا في ذاكرتهم الحيّة بما يعتبرونه خلاصةَ ذاتيتهم، ويعتمدونه مرجعًا لتصرفاتهم، ومِرقاةً إلى ما يطمحون إليه في مستقبلهم.

إن الارتباطَ بالماضي هو مُستنَدُ إحساسِ الأمة بوجودها، حتى لو كان هذا الماضي قصيرًا محدود الآفاق، كما في الأمم الحديثة في أمريكا الشمالية وأستراليا.

أما الأممُ العريقة التي دارت عليها الدوائرُ، وتعرّضت لأشكال من صروف الدهر، فهي تختار من ماضيها ما يُمكِنها الاعتزازُ به، وتسعى إلى ترسيخه في حاضرها.

فإن إيطاليا الحديثة لا تعتَدّ بأمجاد روما الإمبراطورية التي دالت دولتها بعد أن ملكت مُعظم العالم المعروفِ في زمانها، بل إن الحداثةَ الإيطالية تتركّز في تعظيمٍ

لانطلاق عصرِ النهضة من ربوعها، ومازالت الأمجادُ الفنيّة في الرسم والنحت، المرتبطةُ بتلك الحقبة منبعًا للإلهام الفني، ومَفْخَرةً تؤكّد عبقريةَ تلك الأمة.

وكذلك فإن إسبانيا اليوم تعتزّ بأولئك الفنانين من أمثال فيلاسكويز وغويا وزورباران، وأولئك الكتاب من طبقة ثرفانتس، والشعراء كغارسيا لوركا، ولا تذكر أمجادَها المزعومة في استعمارِ أمريكا الجنوبية، والقضاءِ على حضارات رائعة كحضارات الأزتيك والأنكا، ولو أنها قد بدأت تستعيد أمجادَ انطلاقةِ الأندلس الحضارية من شبه الجزيرة الأيبريّة.

ولا أعتقد أن شعبَ اليونان يُبرز في حقيقته الحديثة فتوحاتِ الإسكندر بقدر ما يعتّز بالفلسفة اليونانية التي فتحت مجالاتِ الفكرِ الحرِّ في عالمٍ كان بدائيًّا، كما أنه شعبٌ يعتزُّ بنفحات هوميروس الشاعريّة التي تذكّره بملحمة طروادة.

وأما فرنسا فمن يذكر فيها اليوم أمجاد شارلمان المعاصر لهارون الرشيد وأبي نواس. لقد نسي الفرنسيون ملوكهم وارتبطوا بتاريخ الثورة الفرنسية وما تلاها وهم اليوم يفخرون بوجود لغتهم لغةً حضاريةً في أنحاء القارات الخمس.

وتتميز اليابان بأنها قبلت الحداثةَ بجميع منافعها، ثم بزّت أصحابَها بإنتاجٍ يفوق ما وصلت إليه الحضارات الأوربية، كلُّ ذلك وهي متمسكة بحضارتها المديدة، التي تعيش في وجدان الشعب، وهي المحركةُ لحقائق المجتمع.

فما هو موقعُ العرب في تصوّرهم لحقيقتهم في عالمنا الحديث؟

نحن نتكلم عن حضارةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ وكأنها كائنٌ متكاملٌ معزولٌ عن تاريخ الأمة، ولو أنه في حقيقة الأمر يختزل تاريخَ الأمة. هذا ما يَذهب إليه مؤرخونا، حين يلتقطون النقاطَ الناصعةَ في التاريخ ليُبرزوها مُعتمدين العناصرَ الأساسيةَ وهي الدولةُ والدين والثقافة. وإنه لمنطلقٌ اختزالي إلا أنه أوسعُ من منطلق المؤرخ بوركهارد عندما

اختزل تاريخَ الغَرْب في أضواءِ عصر النهضة المنبعثةِ من إيطاليا، وهي نظرةٌ تعتمد البُنى الفوقيةَ المهيمنةَ على حياة المجتمع شاهدًا على حقيقة المجتمع.

والحضارة كما عرّفها شبنغلر في كتابه عن انحطاط الغرب هي تجربةٌ وحيدة لكلّ أمّة ولو كانت نابعةً من حضارة أخرى، إلا أنها لا تَفرِضُ لنفسها موقعًا متميزًا إلا بعد أن تتوصل إلى وعيِ تَفرُّدِها في مجالاتٍ خاصة بها هي ثقافتها. فليست الثقافةُ سوى طريقةٍ للتفكير تحكُمها رواسبُ متّسقة في انتظامها، قد تمّ استبطانُها، ولا يمكن الوصولُ إلى استيعابها إلا عن طريقِ روحيّةٍ خاصةٍ بها، تميّزها عن الأمم الأخرى.

إن المؤرخين الذين يتطرّقون إلى تاريخ الحضارات يختصرون المسارَ الزمنيَّ عبر القرون، ليؤكدوا وجود ميزاتٍ محددة تُعرَف بها تلك الحضارات، ويعتبرونها ثقافةً تجمع بين عناصرَ متباينةٍ لتَجعل منها كُلاًّ متكاملاً قابلاً للتوصيف، بحيث يمكن إدخالُه في سجلّ الثقافات الأخرى. وبذلك تكون الثقافةُ هي الشخصيةُ التاريخية المثلى، بل المنظومةُ التاريخية التي تمثّل روح تلك الحضارة، وهي قَدَرُها. فحين تتباطأ الثقافةُ في تطورها، وفي اكتنافها لمعطياتٍ جديدة، تصبح الثقافة حضارةً تتمثل فيها الإنجازاتُ المادية. وحقيقة الأمر أن الثقافةَ تكون قد رَسّخت في الحضارة التابعة لها قيمًا ورموزًا ومعاييرَ وتقاليدَ اجتماعيةً هي التي تحكُم تصرفات الأفراد. فالثقافة كلٌّ من عناصرَ متشابكةٍ كرّسها الزمان وقوّاها الاعتياد، وهي في حقيقتها فَهمُ كلِّ أمةٍ لتاريخها.

ولكن ما هو تأثيرُ البيئة التي تنشأ فيها تلك الحضارات على ما ذكرنا من قيَمٍ ومعاييرَ وعادات؟ لاشك أن اختلاف الحضارات مربوطٌ باختلاف موقع نشأتها، إذ هي في عِراكٍ دائم مع مشكلاتٍ ذاتية وخارجية تنتهي إلى تجميدها، أو إلى دفعها قُدُمًا حَسَب قَدَرها المرتبطِ بالزمان الذي تتشكّل فيه. ولذلك فالتاريخ هو تبسيطٌ للحضارة يعتمد معطياتٍ ثقافيةً يتأثر بها مسارها وتَشرحُه. وهنا تمتاز فكرةُ توينبي

بأن الحضارة تُوهَبُ لها الحياةُ حين تكون في مواجهةٍ مع تحدياتٍ وضغوطٍ طبيعية أو تاريخية.

ليس هنا مجالُ مقارنة حضارتنا وثقافتنا بالحضارات والثقافات الأخرى، بل كلُّ ما نودُّ الوصولَ إليه هو إجابةٌ بسيطة عن سؤالنا الأول ما هو موقع الأمة العربية من هذا الجدال.

حقيقةُ الأمر أن العربَ يعيشون تاريخَهم ويعيشون في تاريخهم.

نحن أمةٌ مازالت تُكبر شعراءها بعد مرور سبعةَ عشر قرنًا على جاهليتهم، أمةٌ جعلت من الثقافة حياةً لا تعيش الحضارات بدونها، وملأت ذاكرتَها بأسماءِ أعلامٍ كان لهم إشعاعٌ في زمانهم، سواء برزوا في علومٍ متقدمة كجابر بن حيان والخوارزمي، أو أناروا الفكرَ بأدبهم كالمعري والجاحظ وابن خلدون وابن سينا وابن رشد.

إلا أن التاريخَ المكتوب غالبًا ما يكتفي بذكر أسماء الحكّام وتفصيل معاركهم وانتصاراتهم. فلقد قامت الدولة الحمدانية مثلاً بحماية الثغور الشمالية للبلاد، وكان سيف الدولة مثابرًا على غزو بلاد الروم في كل سنة، ولكن من كان ليذكُرَ «عمورية» لولا شعر أبي تمام عن الخليفة المعتصم؟ ومن يذكر كافورًا ويذكر الإخشيد الذي نسب نفسه إليه؟ ولولا تفاخرُ عمرو بن كلثوم لما ذُكر عمرو بن هند الملك.

إذا كان للشعر الجاهلي والإسلامي مرتكزاتٌ في ثقافتنا، فهناك المرتكزاتُ التي هي أكثر رسوخًا، العميقةُ الأثر في وجداننا. فنحن نعيش السيرةَ النبوية ونتأسّى بأحداثها، وهي منارةٌ على طريق فَهمنا لنزول آيات القرآن الكريم، ومازال غار حراء شاخصًا في أذهاننا.

كما تتدّرج ثقافتنا الحيَّة في ضمائرنا متساوقةً مع مسار تاريخ الفتوحات العربية. فنذكر وصايا أبي بكر الصديق إلى جيش الفتح المتّجه إلى بلاد الشام، ينهاهم فيها عن

أعمالٍ لا أخلاقية على رأسها قتلُ غير المحاربين من رهبانٍ وشيوخ ونساء وأطفال وقتل البهائم إلا لأكلها، وهي اعتباراتٌ وقيمٌ لم تصل الحضارات الحديثة إلى مثلها، بل تكتفي بأن تعطيَ توصيفًا دقيقًا لما يُسمّى جرائمَ الحرب ولكنها لا تعاقبها.

كما أننا نعيش المثاليةَ العليا في التسامح، والتَسامي في احترام الحقوق بعيدًا عن كل إكراه، حين نذكر العهدةَ العمرية لأهل بيت المقدس، ونُعظم الإيمان بالحق حين نذكر مواقف علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وتبقى كربلاء مشهدًا مؤثِّرًا في ضمائرنا.

إنها أمورٌ ومواقفُ ومنطلقات دَمَغت تاريخنا كما دَمَغته معاركُ فاصلةٌ كاليرموك وصفّين وعين جالوت وغيرها، وما تزال الخلافات بين القيسيّة واليمنيّة تنخر في لب الحياة السياسية في جبل لبنان، بعد أن كانت مِعوَلاً هدَّامًا في الدولة العربية.

إن اللغةَ العربية التي تجاوزت عثرات التاريخ وبقيت حافظًا للشخصية العربية، ومَنفَذًا إلى سبر أغوارها، بقيت مُختزنًا لثقافتنا وسجلاً لتاريخنا.

فهي تربطنا بأصولٍ غارقة في القدم وتعطي لنا فرصةً لفهم حقيقتنا الثقافية، إذ نجد فيها آثار حضارات عروبية غابرة هي من روافد نظرتنا إلى العالم، كما تَبيَّن بعد تَعَرُّفِ كتابات إبلة وأوغاريت وتدمر.

أما التاريخ المكتوب فهو سردٌ لأحداث ومواقفَ وتطوراتٍ يسعى المؤرخون إلى توضيحها في انسياب زمان سَرْمَدي هو الدهر، والدهر ليس سوى اسمٍ لعالَمٍ لا بدايةَ له ولا نهايةَ إلا بقيام الساعة، وليست الحياة على وجه الأرض إلا تفتُّحًا عابرًا لا يُستطاع تحديد مصيره. أو كما قال المعري:

ولا عقل للدهر فيما أرى فكيف يُعاتَبُ إن أَذنَبا

فإذا كان الزمانُ الثقافي مساوقًا لمجرى الحياة فهل يكفي تَعَرُّفُ الأحداث

وتسلسلِها، وسلالات الحكام وتتابعها، كما درجت عليه معظم كتب التاريخ؟ أم لابد من تعرُّف الحقائق الإنسانية ضمن هذا التاريخ؟ ذلك لأن الزمنَ المطلق هو مغايرٌ تمامًا للزمن المعِيش المدركِ بالخِبرة والإحساس، فقد عاشت المجتمعاتُ أيام عزٍّ وانبهارٍ، وعاشت أيامَ فقرٍ وحيرةٍ وجودية في مواجهة صُروف الدهر كما هو معروف، وكلُّ مُسِرٍّ قصيرٌ وكل مُحزِنٍ طويل، فالتاريخ الحقيقي الذي يعبِّر عن حياة الأمة هو تأريخٌ للمشكلات المعاشية، والاضطرابات الفكرية، وتحقيقٌ في وقع الغزوات العسكرية والثقافية على الأمة.

إننا نحتاج إلى تاريخ ينظر في حياة الشعوب إلى جانب نظرته إلى تعاقب الحكام، وامتدادِ الدول وأعمارها، تاريخٌ يستخلص من العلوم الإنسانية تصورًا للحقائق المعاشية في العصور المتتالية، فكيف نَفصل علمَ الاجتماع عن سجلاّت التاريخ، وكيف نُهمل استقصاء التأثيرات الاقتصادية في حياة البشر، وهي مرتبطة بالتغيرات المناخية والتبادلات التجارية.

لقد استخلص ابن خلدون نظرته إلى التاريخ من دراسة البيئة والاقتصاد، والصناعة والسياسة، وحتى طُرُقِ كسب الرزق. وكانت أهدافه النظريةُ تصحيحَ أغلاط المؤرخين السابقين، ولذا فإن منطلقَه نظرةٌ إلى طبائع العمران لتمحيص الأخبار وبيان صِدْقِيَّتها فهو يقول إن سبب أخطاء المؤرخين هو:

«الجهلُ بطبائع الأحوال في العمران، فإن كلَّ حادث لابد له من طبيعةٍ محضة في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفًا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدقِ من الكذب».

وبهذا فقد فتح الباب واسعًا لظهور علم جديد هو علم الاجتماع، وتمكّن من اعتماد قوانينَ تخضع لها الظواهر الاجتماعية، وأعطى للبيئة موقعها من تطوّر التاريخ.

إن ما نحتاج إليه اليوم هو نظرةٌ جديدة إلى التاريخ لا تقتصر على حوادث الأيام

والدهور، بل تُدخل في حُسبانها ذلك العنصر الغائب وهو عنصر الحياة اليومية لأفراد المجتمعات، مستقاةً من نظرة المعاصرين أنفسهم إلى الحياة، ومن أسلوبهم في معالجة مشاكلها، وكيفية مواجهتهم لحقائقها. وهذا ما يتيح لنا فرصةَ الوصول إلى فهم أُسسِ مجموعةٍ من العادات والتقاليد نَسَجوها على مر السنين، ويتحركون داخل إطارها، وهي تختلف باختلاف المواقع الجغرافية واختلاف الطبقات الاجتماعية.

ومن أجل هذا كان لابد من الرجوع إلى الكُتّاب المعاصرين للأحداث، لتعرُّف أحوال الأفراد في سياق التغيرات السياسية والاقتصادية، والمعاشية بخاصة.

إنها كتبُ الإخباريين التي تسرد أحوالَ الناس في تجاوبهم مع الأحداث. وقد تمت أخيرًا طباعة كتاب نادر هو «الدُرّة المضيئة في أخبار الدولة الظاهرية» لابن صصرى الدمشقي، ونجد فيه أخبارَ حريق الجامع الأموي عام ٧٩٤هـ ١٣٩١م وتعليقاتٍ على أحوال الناس حين يقول «وفي هذا الشهر انباع الخبز رطل بدرهم وفرحت الناس كثيرًا»، ثم يسجّل الغلاء حين بِيعَ الخبز «كل ثماني أواق بدرهم». وهو يصف الهَلَع الذي أصاب الناس عند وصول خَبرَ اقتراب تيمور من دمشق وغيرَ ذلك من أمورٍ تَنقل إلينا أصداءَ حياة مجتمعنا في ماضٍ ليس بعيدًا.

إننا نتطلع إلى ظهور مدرسة لكتابة تاريخنا تعتمد منهاج المدرسة الفرنسية الحديثة حيث نرى لوروا لادوري Leroy Ladurie يدخل في تفصيل حال المجتمع الفلاّحي في القرون الوسطى، ونرى دوبي G.Duby يشرح دور التغيّرات المناخية في حياة البشر، كما نرى بروديل F.Braudel في كتابه عن البحر الأبيض المتوسط يُبرز لقاءً ممتدًّا بين الماضي والحاضر، في حوارٍ تتناغم فيه أصداءُ المشكلات المجتمعية قديمِها وحديثِها، وذلك في تساؤل مستمر عن جُذور ما تُحسّ به المجتمعات الحديثة من حيرةٍ وجودية وتطلّعاتٍ مستقبلية.

ولقد بزغت تباشير مدرسة عربية تسير في ذلك الاتجاه بعد المؤتمر الأول لتاريخ

بلاد الشام عام ١٩٧٤ إذ أخذت بدراسة الأحوال الاجتماعية بجميع تفاصيلها لتربطها بالأحداث التاريخية، واستندت في ذلك إلى الوثائق العثمانية وإلى سجلاّت المحاكم الشرعية في بلادنا.

أيها الحفل الكريم

إننا نلتفت إلى المحتفى باستقباله في هذه الأمسية عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية الدكتور محمد محفّل الذي سوف يعطيكم الأستاذ الدكتور واثق شهيد بعض ملامح سيرته الذاتية.

نلتفت إليه وهو الأستاذ العريق في تدريس التاريخ، ومن أعلام المدرسة الحديثة للتأريخ في بلاد الشام، آملين أن يكون عونًا لإخوانه المجمعيين، لعلنا نشارك في إظهار حقائقَ تاريخيةٍ كانت مُهملةً، وهي تخص مجتمعات بلادنا، فيمكن الاستفادةُ منها للتأكيدِ على أصالة ثقافتنا، وتوضيحِ بعض المعالم التي بقيت مغمورةً أغرقتها الأحداث المتتابعة ولم تَتضمنْها كتبُ التاريخ.

وعليه فاسمحوا لي أن أختم كلامي فأقول:

تاريخُنا ثقافة وثقافتُنا تاريخ،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.